

## افتتاحية

### الأخطاء الشائعة في كتابة مقالات البحث الاجتماعي

بعد ظهور خمسة وعشرين عدداً من مجلة إضافات، وأنا رئيس لتحريرها، تراكمت لي خبرة عن أخطاء شائعة في كتابة مقالات البحث الاجتماعي. وقد أدى ذلك إلى رفض عدد كبير من المخطوطات المقدمة من قبل الباحثين العرب.

دعوني أولاً أن أقول إن هذه المشكلة لا تتعلق فقط بالحقل الاجتماعي العربي، ولكن بالحقل الاجتماعي في كل أصقاع العالم. وهذا ما أدى إلى أن تقرر الجمعية الدولية لعلم الاجتماع إقامة دورات تدريبية حول الكتابة الأكاديمية لأعضائها في بعض الدول التي زارتها إليزما مارتن (Eloisa Martin) محررة مجلة *Current Sociology*.

وقبل الولوج إلى هذه الأخطاء، لا بد من أن أذكر أن البحث الاجتماعي لا يكتمل إلا عندما تتوافر ثلاثة عناصر، بحسب السوسيولوجي الهندي أندريه باتاي (Béteille) (2013): **العنصر الأول** هو الجانب الميداني للبحث، **والعنصر الثاني** هو الإدراك بأن الظاهرة المدروسة لا يمكن فصلها من دون ربطها بالتاريخ والاقتصاد السياسي وطبيعة النظام السياسي. فمثلاً لا يمكن دراسة المسؤولية الاجتماعية للشركات من دون التحدث عن تخلي الدولة عن برامج العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة. أما **العنصر الثالث** والأخير، فهو الجانب المقارناتي. فمهما كان الجانب الإمبريقي ضيقاً (بحث أجري على مستوى قرية أو مجموعة صغيرة)، يتوجب على الباحث إجراء المقارنات بسياقات أخرى، بغض النظر إن كان ذلك سيؤدي إلى التعميم أم لا، ويتم ذلك من خلال السعي ذهاباً وإياباً بين الإمبريقي والنظري، بحيث نتبين كيف أن هذا البحث سيساهم في فهم إشكاليات تتجاوز مجتمع الدراسة، ويساهم في تطوير النظرية. وإذا لم نفعل ذلك، سنقع في مشكلة ما أسميتها أسطورة الفرادة، واعتبار كل مجتمع على أنه فريد واستثنائي.

سأقسم هذه الأخطاء إلى أبواب بحسب ترتيبها في المقالة العلمية.

## أولاً: المقدمة

تعتبر مقدمة المقالة، كما نقول في الشرق «وجه السحارة»، أي أنها أهم قسم، وهي التي تجعل القارئ يقرر متابعة القراءة أو البحث عن مقالة أخرى. وفي ما عدا الجانب الجمالي الذي يتطلب البدء بقصة قصيرة أو حدث رمزي أو إحصائية صارخة، فالمقدمة لها ثلاثة عناصر يجب أن تتوافر جميعها.

### ١ - الإشكالية

ولعل هذا هو العنصر الأهم، حيث وجدتُ في كثير من الأحيان أن البحث يصاغ بلغة فضفاضة، ووصفية، وبعيدة من الأسلوب العملي الدقيق. وتتضمن الإشكالية: لماذا تناول الباحث الموضوع، وكيف يختلف طرحه عن أولئك الذين اشتغلوا سابقاً به؟ ولا داعي إلى تقليد ما يفعله الباحث في أطروحة الماجستير أو الدكتوراه، حيث يجب تحديد أهمية البحث وأهدافه ومخرجاته، وكل واحدة منها تتضمن عنواناً فرعياً. كل ذلك يجب أن يوضح من خلال نصّ سردي يعرض إشكالية البحث.

ويفضّل أن تنتهي الإشكالية ببعض الفرضيات والأسئلة البحثية. وهنا طبعاً يمكن استخدام طرق مختلفة تختلف بخلاف التخصص العلمي. فالأنثروبولوجيون يحبّذون استخدام تعابير واسعة، فمثلاً يكتبون: «يطمح هذا البحث إلى سبر كيف يفاوض المريض على حقوقه داخل مؤسسة المستشفى»، بينما يفضّل السوسولوجيون أن يضعوا الإشكالية بطريقة قريبة إلى الفرضية أو الأسئلة الدقيقة. وإذا كانت الدراسة إحصائية، فعند ذلك يجب اعتماد صياغة جليّة تظهر فيها المتغيرات المستقلة والتابعة ومعاملات الارتباط ومستوى الدلالة.

### ٢ - المنهجية

إذا كانت المقالة مبنية على بحث ميداني، يمكن للباحث إما ذكر جملتين أو ثلاث عن المنهجية، وتخصيص عنوان لها وحدها لتفصيلها، أو كتابة فقرة من المقدمة. وفي كلتا الحالتين، يمكن تمييز المعلومات بين ما هو مهم، أو ما هو أقل أهمية أو تفصيلي، وتوزيع هذه المعلومات داخل النصّ والهامش، بحيث يقدم سردية تتجاوب مع أنواع مختلفة للقراء، من أولئك الذين يهتمون بالموضوع بشكل عام، إلى المختصين الذين يبحثون عن التفاصيل. وفي حالة وجود فقرة متخصصة، فالمطلوب توصيف دقيق لطريقة البحث وحدودها، وتوصيف المجتمع المدروس وعمل العيّنة (إن وجدت)، ولكل طريقة تقنياتها. ومع كل أسف، فما كتبه مارلين نصر (عام ١٩٩٦) قبل ١٨ سنة عن الأخطاء الشائعة في تطبيق تقنية تحليل المضمون في الأبحاث العربية، فهي تتكرر

نفسها في عام ٢٠١٤. وينبغي للباحث أن يشير في فقرة المنهج إلى أنه يعي موقعه وحدوده، والتنويه بالأدوار الثانوية والظرفية التي قام بها أو يمكن القيام بها.

### ٣- الخطة

تنتهي المقدمة بالخطة التي يبيّن فيها كيف سيتم ترتيب الأفكار داخل المقالة. أخيراً، يفضل أن تكون اللغة تقريرية، وليست معيارية، بحيث يتم تأخير المعيارية وحكم القيمة إلى الخاتمة. وهذا كلام عام، حيث إن بعض المقالات قد تحتاج إلى مبررات أخلاقية وقيمية وسياسية وأيديولوجية منذ بدء البحث. ولعل فريد الزاهي (١٩٩٦: ٢٢٧) قد وضع ذلك بطريقة بديعة: «إن وجود العلمي والأيديولوجي في صلب الممارسة العلمية للباحث أمر لا مفر منه ناجم عن وضعية العلوم الإنسانية، بيد أن حصره بالحد الأدنى الأيديولوجي يظل مهمة أساسية من مهام الباحث الذي يكون مطالباً في هذا الآن، ليس بمراقبة موضوعه فقط، وإنما باليقظة النقدية تجاه أدواته وشروط ممارسة بحثه». إن الحفاظ على التلازم الضروري بين الثقافي/السياسي والبحثي لا يعفي، مع ذلك، من تجاوز الدور الصراعى اليومي للسياسي الذي يسجنه في الآليات النضالية وإكراهاتهم الخطابية والممارسية. والشئ نفسه يمكن التحدّث عن العلاقة الحرجة بين العلمي الاجتماعى والدينى، وضرورة الابتعاد عن الخلط والابتسار، ووضع اليقينيّات في البدء، وبخاصة عندما تكون على شكل تصوّفى: «حدّثني قلبي عن ربي».

### ثانياً: الإطار النظري للبحث

يقدم الباحث إطاراً نظرياً يتضمن الأدبيات التي تناولت متغيّرات البحث والدراسات السابقة ذات الارتباط بالمشكلة البحثية، بهدف التعرّف إلى الكتابات العلمية المؤيدة أو المخالفة لافتراضاته، بحيث يظهر وكأنه لا يريد إعادة اختراع العجلة، وإنما تطويرها. كثير من الباحثين العرب يتعاملون مع من يخالفهم الرأي بتجاهلهم، وهذا خطأ كبير، حيث لا تتشكّل المجموعة العلمية من دون خلق فضاء للتفكير النقدي. وعلى عكس الكثير من المدارس العربية العتيقة التي تطلب من الباحث التحدّث عن نفسه باستخدام ضمير الغائب أو الشخص الثالث، كأن يقول: «قام الباحث»، أو «توصل الباحث...»، فالمطلوب استخدام «قمت»، و«توصلت» لتأكيد الملكية الفكرية وأهمية ذاتية الباحث.

وبينما يطلب من الباحث تقديم كيف «يؤفهم» (conceptualise) متغيّراته، يختزل الكثيرون ذلك إلى تعريفات. أما الخطأ الفادح، فهو أن يعمد الباحث إلى تناول تطور التعريف لكل متغيّر من دون أن يكون ذلك مهماً للدراسة. وغالباً لا يقول لنا ما هو

التعريف/المقاربة/النظرية الذي سيتبناه، وما هو الشيء الجديد مقارنة بما ذكره من الأدبيات السابقة. وإذا كان المطلوب أن يكون الباحث متبّعاً لأحدث الأدبيات التي تتناول موضوعه، فإن كتابة الإطار النظري لا تكون بتجميع هذه الأدبيات، ولكن بابتداع نصّ جديد، وربطه باهتمامات البحث المطروح.

وبما أن هناك علاقة مركبة ومعقدة بين الإنتاج البحثي العربي، والإنتاج الفكري والنظري العلمي، فيجب اعتماد الباحث على بيبيولوجرافيا متوازنة علمياً. وقد لوحظ غالباً عدم التوازن، بحيث يقوم البعض بتغيب أو إغفال الأعمال الأكاديمية باللغة العربية (الميدانية والنظرية)، ويقوم آخرون بتغيب أو إغفال لغات أخرى. والتوازن يجب أن لا يكون بشكل مصطنع، وليس باسم الأيديولوجيا: ف «نقد الاستشراق السوسيولوجي لا ينبغي أن يكون معناه العودة إلى نهج ابن خلدون، ونظرية تصفية الاستعمار ليست أساساً تشاد عليه السوسيولوجيا العربية» (قيسي، ١٩٩٦: ٣٤٢). فالطابع العربي لهذه السوسيولوجيا «لا ينحصر في الموضوع المتخذ، ولا في اللغة المستعملة، ولا في جنسية الباحث، وإنما في نوعية صلة الباحث بموضوع البحث العربي» (قيسي، ١٩٩٦: ٣٤٣).

يقوم البعض بإهمال ما يكتبه زملاؤهم العرب بدافع الرغبة في إقناع القارئ أنهم هم الوحيدون الذين اخترعوا العجلة. ويهمل البعض الآخر كلياً أدبيات علمية عالمية. وهناك آخرون يعتمدون على مراجع قديمة، أو يقتصرون على المراجع الإلكترونية والمراجع غير المحكمة. وهذا الأمر يجعل مقالاتهم إنترنتية ضعيفة علمياً، أو بالأحرى غير مقبولة لعدم وثوقية المراجع، إذ إن ذكر المصادر والمراجع ليس غايةً في ذاته، وليس سبيلاً إلى المباهاة بكثرتها، وإنما الغاية من ذلك هي تقديم الأدلة على ما اشتمل عليه البحث من آراء.

### ثالثاً: نتائج البحث

يقوم بعض الباحثين بفصل تام بين عرض نتائج البحث من جهة، ومناقشتها من جهة أخرى في ضوء الأدبيات الداعمة والناقضة للنتائج، بحيث يتحوّل العرض إلى سرديات لمقابلات معمّقة أو جداول إحصائية من دون السعي ذهاباً وإياباً بين النتائج الإمبريقية والنظرية والوصف والتحليل. ويستغرق البعض في تطبيق أساليب إحصائية متقدمة، ويغالون في تقديم عدد كبير من الجداول والأرقام، ويغفلون عن أن الإحصاء وسيلة، وليست غاية، وبالتالي يغفلون بعده عن التفسير الاجتماعي/السياسي/السيكولوجي لنتائج بحثهم.

غالباً ما يقتل النصّ الاجتماعي التعدادية، فبعض الباحثين يظنون أن عليهم ذكر كلّ العوامل التي تؤثر في ظاهرة ما، وهذا ما يمكن أن يفعله أي إنسان عادي. لذلك،

فإن نتيجة ذلك أننا لا نرى كيف يمكن أن يكون أحد العوامل هو العامل الحرج والمحضر للتغيير أكثر من العوامل الأخرى.

### رابعاً: أسلوب الكتابة

الكتابة أو الصياغة الحسنة للمعرفة هي جزء من المنهجية، وجزء من التفكير، بما يتجاوز التقرير نحو الإيحائية. كتب محسن بوعزيزي (عام ٢٠١٢) نصاً بديعاً حول مشكلة ابتعاد النصّ السوسولوجي العربي عن الأدب، وذلك لادعاء هذا النصّ أن التمسك بـ «اليقظة الإبيستيمولوجية» تحت تأثير «الموضوعية» الدوركهايمية تمنعه من استخدام السردية الأدبية الرخوة التي لا علم فيها. فالمطلوب مثلاً في طريقة المقابلات أو جمع السير «استنفار قدرات الراوي والباحث على التواصل والكلام بغية إنتاج خطاب علمي ينقل التجربة إلى مستواها الإنساني، أي تحويل الذاتي إلى موضوعي، والخاص إلى عام، والمحكي إلى مكتوب، والمكتوب إلى مقالة» (سعيد، ١٩٩٦: ١٢٢).

وكمثال عن تهمة الكتابة «الجميلة» والصياغة «الحسنة»، كتب أحد المحكّمين ناقداً إحدى المخطوطات ما يلي: «غلب على النصّ أسلوب كتابة غير علمي، بل هو أقرب إلى الكتابة الإنشائية والصحفية: (... تنمية مجتمعه والنهوض به من كافة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية... فقد زحرت المدرسة... أقلت مضاجع المسؤولين والتربويين... قلق واهتمام المسؤولين... الإنسان... الحقوق... الواجبات... أهم التحديات... المنوطة بها... بالقول أو بالفعل (يقصد سلوك لفظي أو مادي)... أشراراً... مشكلة اجتماعية خطيرة... استنزاف للطاقة البشرية... في هذا الصدد...». أنا لا أتفق مع هذا المحكّم ولو أنني لست مع نشوء خطاب إنشائي يتساوى فيه الصحفيون والباحثون وعامة الناس (قببسي، ١٩٩٦).

### خامساً: استخدام الهوامش

الهوامش (footnotes) (والبعض يسمّيها الحواشي) هي مُدَوّنات خارجة عن المتن. أول مقالة نشرتها كان لي الحظ في أن تكون محكّمتها الأنثربولوجية الأردنية سنتاي شامي (حالياً مديرة المجلس العربي للعلوم الاجتماعية)، التي قالت لي إنها ستأخذ كل هوامشي وتضعها في المتن، وتأخذ المتن لوضعه في الهوامش. لقد عرفت وقتها أنني لا أعرف جيداً كيف استخدم الهوامش، إذ كنت وقتها أخاف من قراءة نتائج بحثي في ضوء أدبيات أخرى، ولذا كنت استخدم الهوامش للمقارنة، وقد اعتبرتها سنتاي شامي الجانب الأهم في دراستي. ورغم أن البعض يظن أن الهوامش تشير فقط إلى المصادر

والمراجع التي يستخدمها الباحث في بحثه، إلا أنها ليست كذلك فحسب، بل إنها أيضاً للتوضيح، وكذلك للاستطرادات المهمة التي تخرج قليلاً عن الموضوع. إذن الفارق بين وضع الفكرة في المتن أو في الهامش، هو أن أية فكرة أو فقرة مُتصلة اتصالاً مباشراً بالأفكار الأساسية بموضوع البحث يكون موضعها المتن، أما ما هو منها مُتصل اتصالاً جانبياً، كشرح نقطة، أو توضيح فكرة، أو التعليق عليها، لو وضع في صلب الرسالة، لاستدعى انقطاع التسلسل الفكري للموضوع الأساسي؛ لذلك فمثل هذا موضعه هامش المقالة.

## سادساً: الاستنتاجات أو الخاتمة

الخاتمة هي تلخيص مركز ومبني على الاستدلال ذي الحجّة المنطقية العقلية أو التجريبية، أو مبني على الاستقرار والاستباط للنصّ المبحوث، لتكون ذروة البحث وزبدته. إضافة إلى ذلك، يجب تضمين الخاتمة توسيع النتائج واستكمالها (Extrapolation) بما يتجاوز قراءة مباشرة للبحث الميداني والمقابلات والبيانات الإحصائية.

ويمكن أن تخلص المقالة إلى توصيات ومقترحات تكون عملية وقابلة للتنفيذ، ويمكن الاستفادة منها ضمن الحقل المعرفي والتطبيقي للبحث. وقد تتصرف التوصيات إلى اقتراح دراسات وبحوث جديدة، ظهرت الحاجة إلى دراستها من خلال سير البحث.

## المراجع

- بوعزيزي، محسن (٢٠١٢). «السؤال اللساني: الكتابة السوسولوجية.» ورقة قدمت إلى: ندوة «مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي»، الجزائر، ٢٠ - ٢٢ آذار/مارس.
- الزاهي، فريد (١٩٩٦). «البحث السياسي والثقافي: التمهيدات والحدود والمعضلات.» باحثات: العدد ٣.
- سعيد، ماري كلود (١٩٩٦). «جمع السير الذاتية: علاقة المراقب بالموضوع.» باحثات: العدد ٢، ص ١٢٢ - ١٣٠.
- قبيسي، حسين (١٩٩٦). «السوسولوجية العربية بين العلم والأيدولوجيا: للعلم لسان أم أسنّة؟ وأسئلة أخرى.» باحثات: العدد ٣.
- نصر، مارلين (١٩٩٦). «تحليل المضمون في الأبحاث العربية: صعوبة السيطرة على تقنية مستوردة.» باحثات: العدد ٣.
- Béteille, André (2013). «The Vocation of Sociology: A Pragmatic View.» *Global Dialog* (International Sociological Association Newsletter): vols. 3-2, pp. 4-5.